

التكليف من الله مباشرة ، فيما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن - كما نعلم - هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة صبا)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ لَيْنَ أَنْتَرَنَ إِيَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنُ فَرِيشَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة ص)

مادام إبليس قد قال : « لآخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض - كما نعلم - هو القطع . ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذي لا كلام فيه أبداً .

وما وسيلة إبليس - إذن - لأخذ نصيب مفروض من بني آدم ؟

وهو ضع الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرَنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ
مَاذَا تَأْتَعِدِ وَلَا مَرْهَبَهمْ فَلْيَخَيْرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٦﴾

في هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لتصيب مفروض من بني آدم . فإبليس هو القاتل كما يحكى القرآن :

﴿لَأَنذَنَنَّ لَكُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيئ لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخبارة ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهي تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفي هذا إجابة لمن يقولون : إن الوسوس تأتي لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هي أشرف موقف للمعبد ؛ لأنه يقف بين يدي الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أن يلهي الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوسوس ظاهرة صحية في الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة يتزعج الشيطان الإنسان نزهة فليبتدكر قول الحق :

﴿وَأَمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠٠ سورة الأعراف)

وعندما نستعبد بالله فوراً يعرف الشيطان أنك متب له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن في أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك متب له مرة واثنين وثلاثاً فهو يبتعد عنك فلا يأتي لك من بعد ذلك إلا إذا أحس منك غفلة .

وبين لنا الحق طريقة الشيطان في أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلنهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للنهاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتلى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى يوضح منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف في البداية يتسع حتى نتهى إلى غير غلبة .

و ضربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة في منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المسار إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلها سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض في أن كل خطوة بخطورها تمضي له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ «الكشك» الذي يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل «الكشك» اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات في هذا «الكشك» يحرك قضيباً يكون سمكه في بعض الأحيان علداً من المليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لمجالات القطار أن تنتقل من قضيب إلى آخر .

الضلال - إذن - أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة في هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليحده عن ممالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتي على لسان الشيطان ما قاله الحق في هذه الآية : «ولأمنهم» والأمان هي أن ينصب الإنسان في خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطر له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذي نراه جالساً ويمني نفسه قائلاً : سيكون عندي كذا .. وكذا وكذا .. ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر نسلية لنفسه :

مَنْ .. إن تكن حقاً .. تكن أحسن المني

وإلا فقد حشنا بها زمناً رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمان في أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هي أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمان بضاعة الحمقى » والشيطان يبنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولأمرهم فليستكن آذان الأنعام » والبتك هو : القطع . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن قال فى الأنعام :

﴿ تَحْنِيطُ أَرْوَاحٍ مِّنَ النَّارِ اثْنَيْنِ وَمِنَ النَّارِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَاللهِ كَرِيمٌ حَرَّمَ أَمِ الْاُنثَيْنِ
أَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنثَيْنِ نَبِّهْنِي يَعْلَمُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الْاِِبِلِ
اِثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اِثْنَيْنِ قُلْ ءَاللهِ كَرِيمٌ حَرَّمَ أَمِ الْاُنثَيْنِ أَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ
الْاُنثَيْنِ ﴾

(الآية ١٤٣ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن تفرق جيداً لفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الخلاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضا : كلمة « توأم » التى نظن أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولأمرهم فليستكن آذان الأنعام » فلهذا قصة . ونحن نعرف أن المتضعفين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلاحظ أحد أنه من الغباء تقبل فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسيابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المتضعفين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدة ليأخذوا الخير ، وبطيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يبعدها

وسيلة ، فيجلس في جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأت الأغنياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها . ولذلك كان السدنة دائماً وفي أغلب الحالات أهل سفينة لأنهم أهل بطنة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله يفضي الخبر السمين) (١) .

فمثل هذا الخبر يستسهل أكل خبر الناس والانتفاع به ، فهو يتنفع بضلالات الناس ، ومن يتنفع بالضلالة يرى أن حقه في أن نستمر الضلالة ، مثله في ذلك مثل المتنفع من تجارة المخدرات إنه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات . . . وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات يغضب ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذي يصيبه الغم عندما تأق البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستتر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المتنفع بالفساد هبة إصلاح بغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون في الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغنياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل النجاليين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عفريناً ، والعفريت يطلب ناقة أو خبيصة أو دماً .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشق الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أى واحدة منها ، فهذا يعنى أنها متلورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفي آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَزَلَّ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ، وعند أبي نعيم في الطب للنبوي رحمه الله أبي الليث السمرقاني في مستانه لأبي أسامة الباهلي مرفوعاً .

ويورد الحق أيضاً في هذا الأمر :

﴿ تَحْنِيطُ أَرْوَاحٍ مِّنَ النَّسَائِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَلَا تَدْرِيْنَ حَرَمَ أُمِّ الْاُنثِيَيْنِ
 اَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنثِيَيْنِ فَيَعْرِفُنَّ يَعْلَمُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾ وَمِنَ الْاَبِلِ
 اِثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اِثْنَيْنِ قُلْ ءَلَا تَدْرِيْنَ حَرَمَ اُمِّ الْاُنثِيَيْنِ اَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ
 الْاُنثِيَيْنِ اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ اِذْ وَصَّيْنَاكَ بِهَذَا فَمَنْ اَعْظَمُ مِّنْ اَقْرَبَى عَلَى اَقْبَهُ كِتَابًا
 لِّيُضِلَّ النَّاسَ يَغْيِرُ عِلْمُ اِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْغَاطِلِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة الانعام)

فهل المحرم هو الذكران ، أو الانثيان أو الذي اشتملت عليه ارحام الانثيين ؟ .

لا شيء من هذه كلها محرم ، فقد خلقها الله كلها وزقاً حلالاً . والنعمة نفسها
 تعرف وظيفتها ، ونلاحظ في الريف المصري عندما تَحْنِطُ جاموسة أو بقرة أو غروف
 بالحبل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ويعد حنقه فيقال : « لقد طلب
 الحلال » ، كان البهيمة تقول لصاحبها : الحنق بالذبح لتستفيد من لحمي
 وتصيب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ، لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف
 فائدتها بالنسبة للإنسان فتمد رقبتها طالبة الذبح ، كما نعرف أنها في أثناء حياتها تحمم
 الإنسان إما في أن تحمل الأثقال ، وإما أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو
 الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويشتاها ويصيبها خطر فهي تمد رقبتها كأنها تطلب الذبح
 لاستفيد الإنسان من لحمها ، فهي مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاماً وتسخييراً .

وملأه الله قد جعل لنا كل هذا . . فلم نقبل تحريم غير المحرم وتحليل غير
 الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت
 الناقة أريمة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكراً يقول السدنة : يكفي أنها جاءت
 بأريمة بطون وأنت بالخامس فحلاً ذكراً . ويشقون لذن الناقة ويتركبوها ، وعندما
 يراها أحد ويحمد أذننا مشفوقة فالعرف يقضي بالآ تستخلم في أي شيء ، لافي
 الرضاة ، ولا في الحمل ولا بحلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلاً ونسعى

« البعيرة » ويأخذها السدنة في أى وقت ، لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها في الوقت الذى يترأى لهم ، ولذلك قال الحق :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

والبعيرة - إذن - هى الناقة التى تبحر أذاتها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تبعاً ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة ربيها صاحبها للأصنام . والبعيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نذراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الخضر . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لأهلهم . وإن ولدت ذكراً وأنثى لم يذبحوا الذكر لأهلهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النسل ، لذلك فهية الفحل للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

ولما أمهات القوم أوعية مستحشبات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إنثى المواشى تحتاج إلى فحل واحد ، وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ، لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل لبطلح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البعيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النذر من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحياة . والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه عشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : بمى ظهره .

وهناك من يتحلق في عصرنا قائلًا : أنا نبال ، لا أكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يذبح إنساناً ويدعى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول هؤلاء : انتبهوا ، إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهي نفسها تحب أن يتنفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولا أمرهم فليتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : أه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ؟ فهذا مصدر للخوف من أن يزيف الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولا أمرهم فليغيرون خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده . ونسأل : كيف يغيرون من خلق الله ؟ وكل شيء هو من خلق الله .

والخلق - كما نعلم - إيجاد من عدم ، وسبحانه خلق كل شيء وجعل لكل كائناً وظيفة ما ، فهو خلق من حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة في علم الخالق أزلاً - والله المثل الأعلى - نجد المستحدثات الصناعية في الأسواق كفسلة الملابس مثلاً ونعرف أن الذي صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر في هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التي تؤدي هذا العمل لتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرون » أراد في البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والفصل .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نقع في عذوور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة تريد فهم لفظ من الألفاظ فليبحث في القرآن عن

نظائره ، وقد نجد في القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا :
« فليغيرن خلق الله » ، وفي موقع آخر يقول :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه في الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مفعود به
قوله الحق :

﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة يس)

رأية أخرى تقرّبنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿ فَطَرَتْ اللَّهُ أَلْفَى فَطَرَ النَّاسَ مَلِيًّا لَا يُدِيلُ لِنَايِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الروم)

وهذا يعني أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة
فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن ؟ إنها الصفاء الأولى في النفس والطبيعة .
ومثال ذلك حين يوجد الإنسان في بيئة لا تكذب فلن يعرف في حياته الكذب .
وعندما يوجد الإنسان في بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف
على المواقف من النقص المجتمعي ، بدليل أن البلدان التي طبقت الشريعة
الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدي عفوياً وحداً في السرقة انتهت فيها
السرقة . ونشأ جيل لم يرسارقاً . ومن يترك شيئاً في مكان ما يظل في مكانه إلى أن
يعود صاحبه ليجمده ، هذه هي الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة
بطبيعتها هو أننا نجد أن الذي يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص
ويستتر ؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم .

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنه ينظر بكل ملكاته ،
أما إن نظر - والعياذ بالله - إلى معارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن
الأخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متنافراً ومغافراً لطبيعته .
والتكلف هو الإتيان بشيء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة
هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأل إلا من هذه الناحية .

كيف ؟

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث . أى أنه يحاول أن يكون أنثى . وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزيتها ويتخف ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تترجل ، فهي تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد - أمد الله بالعافية - وهو شاعر وزميل لى ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرت من الذين اللان - حوت بين الفقى وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ، لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفقى والفتاة ، ففى بعض الأحيان صادرا من « الذين واللاق معاً » لأن الفقى يشبه بالفتاة ، والفتاة تشبه بالفقى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الخلقة ، كنزع شعر الحواجب من منابتها وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويقضض ذلك نبت الشعر من جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سر جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفاً ، وقد يكون سر الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما ينطقى هذه الأمزجة . ألا نرى فى الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة فلا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتى آخر فيعجب بالفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى أنشأ السيال العاطفى ليترأى الخلق بهذا السيال . وقد نحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفى .

وقد تريد المرأة أن تجعل حرة خديها فى لون الورد فتضع عليهما بعضاً من

المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها في الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المساحيق قد خنقت مسام جلدتها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كأنه أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التي يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعي ؟ إن الأظافر ذات لون أراد الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تنفس أيضاً . وقد يفنى واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ، فهذه ليست أصابعاً ، لأن الأصابع تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر - مثل الحنة - وفي هذه الحالة يصل الماء في الظهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التي على الظفر فلا تزال إلا بمادة كيميائية ويمكن إزالتها وهي لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها في القل أو الوصول إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطى للإنسان سكناً ومعة ولكن بتوازن عاطفي وعقلي ، فلو أراد الله لخذ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للحدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القرة التي في الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قرة الرجل ، فسبحانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقاً بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تنيير لخلق الله . وكذلك المرأة التي تحدث وشياً^(١) ، أو الرجل الذي يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

(١) الوشم : ما يكون من غرز الإبرة في البدن ، وغرز ما حذ عليه تستخرج من ثبات النيل يسمى : « النليج » حتى يبرز أثره لو يفسد .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً » والولي للشيطان هو الذي يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذي يورثه مهاوى وموارد الهلاك ، ويجسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝٢٦٥﴾

وهذا يعني أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لواليه ويخبرهم بشيء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشيء يسره أن يوجد .

ومثال على ذلك نراه في الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذي قد جاء بالثعب ، والصدقة في ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُّكَ الْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟

لأن الشيطان يوسوس في صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يوضح لوساوس الشيطان ؛ لأنه يورثه موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمان الكاذبة في الوسوس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاجر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٢٦٩﴾

(سورة الكهف)

المتناحر يقول : مادام الله قد أعطاني في الدنيا ، ومادامت مهجة الله هي العطاء الدائم فلا بد أن يعطيني ربي في الآخرة أصحاف ما في الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد في الآخرة ، فإذا كان جزاؤه ؟ .

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استنجاب لوهود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً ، وما يهدم الشيطان إلا غروراً .

فما هو الغرور ؟ هناك « غرور » - بضم الغين - ، وه « غرور » - بفتح الغين - . والغرور - بضم الغين - هو الشيء يُصوّر لك على أنه حقيقة وهو في الواقع وهم . والغرور - بفتح الغين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغرور - بفتح الغين - هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمي ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة بخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسْرَابٍ يَفْبِقُهُ يَحْسَبُ الظَّلْمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النور)

وكذلك الغرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ يَفْبِقُهُ الظَّلْمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُمْ حُسَابًا ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾

(سورة النور)

ويقال الكافر بوجود الله الذي كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمره ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذي يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَقِيمْنَا إِنَّ مَاعْمَلُوا مِنْ عَمَلٍ لَّحَقَلْنَاهُ حَبَاءً مَّنْثُورًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

وقد بات واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

- هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التي أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أبصرون إلى عذاب ؟ . ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ، لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس في ياله الله . بل قام بتلك الأعمال وفي ياله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فبك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقل عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار ^(١) .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم في الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين في باهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويسجل أحاديث الإيمان على شرائط يسمحها من لم يحضر ويشاهد هذه الشجرة ، إذن هؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتواهم لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله في عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم ، فلا يستحلون .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في الجهاد . وأخرجه كذلك النسائي والترمذي وابن ماجه .

« وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء في الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُجَدُّونَ عَنْهَا
بَحِيمًا ۝ ١٧ ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذي يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه . فهل هذا الاضطراب يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستبقى لائلا :

﴿ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ن)

كان النار ستجذب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها حيماً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معلى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله في دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لَئِنْ أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ ۖ إِلَٰهَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورثه الحق :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ قِيلًا ۝ ١٨ ﴾

وحين يأتي سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالتفوس مهياة ومستعدة لتسمع عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينظر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

وهنا يقول : « سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . والمتيقن من الله والواقف به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثل ذلك حينما سأل النبي أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصاري : (كيف أصبحت يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمناً حقاً . لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعاني وهي الإيمان حقاً ، لذلك قال الرسول : انظروا تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟

أجاب الصحابي : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليل وأظلمت نهارى ، وكأني أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاودون وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال : « يا حارث : عرفت فالزم ثلاثاً »^(١) .

والحق ساعة يقول : « س » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

والجنة - كما قلنا من قبل - على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهي الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصورح نباتها وشجرها ومبسس ويتناثر ، أو يصيبها الجلب . أما جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من

١ - رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية . وضعفه الدارقطني وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالنقص منها معنى آخر : كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَبَصَرُهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (٧)

(سورة الفلم)

ولوله سبحانه :

﴿ كُلَّ جَنَّةٍ يَرْيَوْنَ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بريرة هي البستان على مكان عال ، وهي ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع في هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَتَأْتَتْ أَصْكَالَهَا خِضْفَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويزيد على ذلك أنها بريرة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذ الرى من المطر للجذور، والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويطبقنا سبحانه على استغاضها بنضربها ونخضرها ، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يجزئه أحد ؛ لأن الأنهار تجري وتتبع من تحتها . وبعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدين فيها أبداً » أى أن المكث في الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد من ؟ « وعد الله حقاً ومن أسدى من الله فيلاً » . ونحن بمدك من

لا يخرج منه شيء عن إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق - سبحانه - . أما وعد الماوى لك في البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد بغير رأيه ، أو لا يجد الوجود واليسار والسعة والغنى فلا يستطيع أن يوفى بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتأوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا : وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ، هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقراراً منهم بصدق ما يقوله الله ، أوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ، لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو الخوف ممن يكذب عنده ، والله منزّه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صادق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ
مَنْ يَمَسَّ سُوءَ إِيجْزَائِهِمْ وَلَا يَجِدْ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣٧﴾

والأمنية - كما عرفنا - هي أن يطمح الإنسان إلى شيء عتق مسعد بنون وصيد من عمل ، إن الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان في الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والثل الذي نضربه لذلك ، عندما يوجد بشر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها

خواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد هذه الحوافي وأزاح ما فيها من الأتربة ليظمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هي وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد تمتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . . كان يأتى إلى جوانب البئر ويبني حولها جداراً من الطوب كي لا ينسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاء للبئر ، فإن طمع الإنسان أكثر فهو يفكر في راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم النعاب إلى البئر ليملاؤا جوارهم وليرجم فيه كرفي رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى تمتع دون عمل . . فهذه هي الأمان الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا يتخذها بخطة من عمل . . فهذه هي الأمان التي لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إذن فالأمنية هي أن يطمح إنسان إلى أمر تمتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شيء سيباً ، ولنلاحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَاتَّبِعْ مِثْلًا ﴾

(سورة الكهف)

أي أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرقى أساليب الحياة في الأرض ، قاله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية . وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فيترل الماء من السماء ، ويترل ماء المطر في مجار مكدحة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون في كل مجرى تراب من مسخور أو طمي ، لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها في صهاريج لتأخيرها إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوماً جبلاً . وصنع الإنسان الكوب في البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمان .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمثل الإنسان ويتسبب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن يتسبب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ؛ فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما كان به .

كذلك قال الحق : « ليس بآمانيتكم » والخطاب هنا لمن ؟ . إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضي حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسن الظن بالله . وتسمع الحسن البصري يقول لهؤلاء : ليس الإيمان بالتسنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، إن قوماً أغتصبوا أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له .

وسبحانه بقول لهؤلاء : « ليس بآمانيتكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ؛ فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأمان بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بآمانيتكم » شاملاً أيضاً للكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبعث :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾

(سورة الكهف)

هذه هي أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن آمانيتهم :

﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿لَنْ نَمُنَّ بِالنَّارِ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمان خادعة ؛ لأن منج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذي جاء خاتماً فليعمل ؛ لأن القضية الواضحة التي يحكم بها الله خلقه هي قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يُجَدُّ له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَدُّوا وَقَارِيْرًا قَدْ فِي كُلِّ مَا يَصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى الشُّكَّةَ يَشَاكُهَا وَالنَّكْبَةَ يَنْكِبُهَا » ^(١) .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء في هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند في ذلك إلى قوله الحق :

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾

(من الآية ٣٦ سورة طه)

كان الجزاء المألوم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سيفقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يُجَدُّ له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجدد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجد ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءاً فليبحث لنفسه عن ولي أو نصير ولن يجد .

والولي هو الذي يلي الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلي

١- رواه مسلم واحد واقتضى والنسائي من حديث سليمان بن عيسى .

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوياً ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعارفته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولي » ، « النصير » ؟ . والولي - كما عرفنا - هو القريب الذي يل الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه في سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتي لتنصرته ، بينما لا يجد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجد من يقرب منه ولن يجد من ينصره إن عضته الأحداث ، وعض الأحداث هو الذي يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفرغ إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .
ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و « أنتى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه ، لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل ، وفي ذلك إجماع بأن أمرها مبني على السر .

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنتى » . وجاء سبحانه هنا بلفظة (من) التي تدل على التبعيض . . أى على جزء من كل فيقول : « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .